

(التنشئة على الحجاب بين ترسيخ الهوية وتأكيد قيم المواطنة)

-دراسة تحليلية على أوضاع المحجبات في فرنسا-

د/ جنيدي عبدالرحمان _ المركز الجامعي ، غليزان

د/ شاربي بلقاسم _ جامعة الجلفة

ملخص: تُعدُّ التنشئة الدينية عمليةً قاعديةً في حياة الفرد، حيث أنَّ المُحدِّدَ الرئيسيَّ والأوَّلَ لسلوك الفرد هو الدينُ، كما أنَّه يُمثِّلُ العاملَ المحوريَّ في بناء شخصيته داخل المجتمع. ولهذا فالأسرة داخل المجتمع تسعى دائماً إلى توجيه الفرد توجيهاً سليماً بالرجوع إلى المعايير والقيم الدينية، وذلك ليكون مُتماشياً مع توجُّهات وثقافة المجتمع وتحاول الأسرة بالدرجة الأولى إلى تحقيق أرقى المُثُلِ وأسمائها فيما يخصُّ تربية أبنائها. وتُعتبرُ المُواطنة مفهوماً عاماً وشاملاً، ينطوي على مجموعة من المفاهيم المتلازمة والمتسقة فيما بينها، لتُوجِّه سلوك الأفراد وتُحدِّد تصرفاتهم في ميادين العمل الوطني، وتُشير المواطنة الصالحة إلى موقف الفرد من السلطة الممثلة بالدستور وما جاء فيه من حقوق وواجبات، وما ينبثق عنه من أنظمة وتعليمات، كما تشير المواطنة الصالحة إلى ما يُبطنه الفردُ من ولاء وانتماء واعتزاز بوطنه وشعبه ونظامه، وما يُترجمه من مشاركة عملية في كل ما يهدف إلى مصلحة الوطن." كلمات مفتاحية: التنشئة / الحجاب / الهوية / قيم المواطنة

Abstract : Religious formation is a fundamental process in any individual's life. The main determinant of one's behaviour is religion. It is also the main factor in forming his personality. Therefore, the Family within the community always aims to direct the individual properly according to the religious standards and values, in order to be adequate with the trends and culture of the Society. The family is primarily trying to achieve the finest and best ideals in the education of children. Citizenship is a general and large concept that involves a set of concepts that are consistent with each other to guide the behaviour of individuals and determine their actions in the fields of patriot actions. Good citizenship refers to the individual's position on the authority represented by the constitution and what determines as duties and rights, Good citizenship also refers to the loyalty, belonging and pride of the individual in his homeland, his people and his regime, and his practical participation in all that is aimed at the benefit of the nation."

Key words: Socialization / The veil / Identity / Citizenship / Citizenship values

تمهيد:

على اعتبار أنَّ المواطنة تُكْمُنُ في قلب الحياة الاجتماعية والتماسك الاجتماعي ولكي يتمكن الأفراد في المجتمع -وضمن حياتهم اليومية- من ممارسة السلوكيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بشكل ديمقراطي في مجتمعاتهم، فإنَّ عليهم بالأساس أن يكونوا على دراية ووعي كافيين بمعنى المواطنة وأبعادها ومرتكزاتها، ومن ثَمَّ تكون لديهم القدرة على ممارسة مبادئ وقيم الديمقراطية في حياتهم اليومية بحيث تكون الديمقراطية جزء من الثقافة المجتمعية السائدة بين الحين والآخر". وهذا يُبرز أهمية دور التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها بعض مؤسسات المجتمع على اختلاف أنواعها الرسمية وغير الرسمية، لتعزيز المواطنة ومبدأ الديمقراطية وغرس مفاهيمها في نفوس المواطنين، فأساليب التنشئة في البيت والمدرسة والمجتمع بشتى وسائله تساعد على تنمية قيم ومبادئ المواطنة.

1- التنشئة الاجتماعية وقيم المواطنة.

1-1 مفهوم التنشئة الاجتماعية:

كلمة -التنشئة- في اللغة راجعة إلى المصدر نشأ بمعنى رَبا وشَبَّ". (الزبيدي 1969، ج1، ص463). أما اصطلاحاً فقد اختلفت التعريفات فيها وذلك باختلاف العلوم التي تناولتها، فلا يوجد تعريف جامع مانع لمفهوم التنشئة الاجتماعية، إلا أن المهتم في مجال الدراسة هو التركيز على كون التنشئة عملية تعليم وتربية على قيم المواطنة.

وقد عرفها أحد الباحثين بقوله بـ "إنَّ عملية التنشئة الاجتماعية يُمكنُ تسميتها (عملية التربية) حيث أنَّ كلَّ مجتمعٍ يخرِّصُ على نَقْلِ عاداته وتقاليده إلى الفرد وخاصة الأطفال ، لكي يقومَ بالأدوار الاجتماعية التي ستُؤكِّلُ إليه فيما بعد" (مختار ع9، 1999، ص28).

تختلف التنشئة الاجتماعية من مجتمع لآخر، لأنَّ لكلِّ مجتمع عاداته وتقاليده الخاصة به وهو يعمل جاهداً على نقل هذا الموروث الحضاري لأفراده وأجياله (الحمادي 1989، ص194)، علماً أنَّ للوراثة والبيئة أثرٌ كبيرٌ في شخصية الفرد وتنشئته (نفي 1969، ج1، ص8) وهناك من يمزج بين مفهومي التنشئة الاجتماعية، ومفهوم التنشئة الثقافية حيث يندسُّ الفردُ داخل إطار الثقافة ويغرس القيم الثقافية للمحيط الذي ينتهي إليه فتنتقل إليه الخبرات من جيل الآباء، إلى جيل الأبناء." (الكندري 2003، ص30) وهناك من يرى بربط المصطلح ويترجمه إلى ما يسمى بالتطبيع الاجتماعي.

2-1 التنشئة الاجتماعية وثقافة المواطنة:

ومفهومُ التنشئة مفهومٌ ديناميكيٌّ لما يتضمَّنُه من معنى لتشكيل الفرد اجتماعياً من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي بين الفرد ومحيطه. فهي تربيةٌ تقوم على التفاعل الاجتماعي ودفع الفرد إلى اكتساب سلوكا ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة تمكنه من مساهمة جماعته والتوافق الاجتماعي معها وتكسبه الطابع الاجتماعي، وتيسِّرُ له الاندماج في الحياة الاجتماعية بمعنى آخر عملية التشكيل الاجتماعي لخدمة الشخصية وهي عملية تحويل الكائن البيولوجي إلى كائن اجتماعي " (منير 1981، ص111). كما يقوم القانون والعرف بضبط قواعد الجسد الذي لا يمكن أن يصبح شرعياً ومقبولاً إلا بعد خضوعه للقانون السائد، وتُمارَسُ الهيمنة الاجتماعية على الجسد من كل المؤسسات الاجتماعية من خلال مجموعةٍ من العلاقات الثقافية الأساسية. تُعزِّزُها منظومةُ العقائد القائمة على الممنوع والحرام، حيث تحريمُ الخُلوة والتعري والتواصل مع الآخر والمصافحة، جزء من العذرية العامة."

وفي هذا الفصل سُرِّكز على التنشئة بطابعها الديني للفتاة وعلى وجه الخصوص المتعلقة بعملية الحجب وممارسة المواطنة. وفق الأساليب المختلفة للتنشئة، من أكثرها انفتاحاً وتحرراً إلى تلك المتشددة والتي تمارس دعوى مكثفة للنقاب والزمام الفتاة بلبس الجلباب وعدم الخلوة مع الأجانب ولا تسافر إلا بمحرم (مرافق) وتمنعها من السياقة وتحرمها من العمل وأحياناً من التعليم كما نجد نمط التنشئة المتسلط القائم على النظام الأبوي الذي يمنع الفتاة نهائياً من الخروج إلى الفضاء العام.

3-1 التنشئة الاجتماعية ومنظومة قيم المواطنة:

القيمة هنا هي مجموعة من المعتقدات والمعاني التي يحملها الفرد وتُحدِّد وتُوجِّهُ رغباته واتجاهاته، وهي في النهاية تُحدد ما هو مقبولٌ، وما هو غير مقبولٍ، فهي التي تحدد له السلوك القويم أو الصَّحيح أو السلوك الخاطئ. وللقيم من هذا المنطلق وظائفٌ متعددة. فبالإضافة إلى أنها تُحدِّد المقبول وغير المقبول داخل المجتمع، كما يشير "حسين تكريتي" (تكريتي 1999) على تماسك ووحدة المجتمع من خلال التشابه في المنظومة القيميَّة بين كافة أفرادها. فيشير إلى أنه كلما اتَّسع مدى التشابه بين هؤلاء الأفراد، كلما ازدادت وحدة المجتمع وتماسك أعضاؤه، والاختلاف القيمي هنا يؤدي إلى اختلاف بين الأفراد، ونشوء الصراع بين أفراد المجتمع، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تفككه.

من المعروف، كما يشير كرونباخ إلى أن أفراد المجتمع الواحد لا يتشابهون في إطارهم القيمي، فهم يختلفون فيما بينهم في منظومتهم القيميَّة. فهناك اختلاف على المستوى الفردي في القيم، وهناك أيضاً اختلاف على مستوى الجماعة التي ينتهي لها الفرد. ويتجلَّى مدى توافق المجتمع وتجانسه متى ما استطاع أن يُحقِّقَ القيم المشتركة ويتشابه مع الآخرين بها. إن هذا المنظور لخصوصية القيم ينطلق من المنظور العام لمفهومٍ أوسع وأشمل وهو مفهوم الثقافة. فهناك العديد من الثقافات الفرعية داخل المجتمع الواحد.

فهذه الثقافات الفرعية تتجانس فيما بينها، ولكنها تختلف عن الثقافات الأخرى، وهم جميعاً في إطار الكليّة والشمولية يتوافقون، ويتشابهون تحت ثقافة مجتمع واحد. فمدى التشابه في طرق الحياة والعادات، والتقاليد والأساليب الحياتية، والقيم، والمعتقدات، هو الذي يخلق التجانس داخل المجتمع، والعكس صحيح.

2: التنشئة على المواطنة بين مختلف المؤسسات

تتم عملية التربية على قيم المواطنة في المجتمعات الإسلامية عبر مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية المعروفة من هذه المؤسسات ومن أبرز هذه المؤسسات:

1-2- الأسرة وبناء قيم المواطنة:

تعتبر الأسرة بشكل عام في أدبيات علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي أحد الجماعات المهمة لكونها جماعة مرجعية وأولية. فهي النواة الأولى في المجتمع. وكونها كذلك، حاملة للقيم وللمعايير الثقافية، ومصدراً أساسياً لبلورة التصورات الاجتماعية حول علاقة الفرد بالآخر ومن ذلك علاقة الفرد بالسلطة والنظام والدولة الوطن.

كما تعمل الأسرة على ترسيخ القيم، والمعتقدات، والعمل على وضوح الرؤية أمام شخصيات الأبناء الذين سيتحملون مسئوليات وأمانة القيادة العائلية والمجتمعية في وقت لاحق. وبالأخص الوظائف التربوية المتعلقة بمسألة المواطنة، في وسط مجتمع يحمل تعددية ثقافية واتجاهات عقائدية وطبقية مختلفة، مما يجعل المسؤولية التربوية مضاعفة لأن الأسرة هي المحل الأول والأخير، الذي ينطوي على نقل التراث الثقافي للأجيال المقبلة، ووظيفة الأسرة التربوية لا تقتصر فقط على مرحلة الطفولة ولكن تمتد التنشئة الاجتماعية لتشمل شؤون المراهقين والبالغين، ولا تتركهم عرضة للتيارات الجارفة للانحراف. (ابراهيم، 2013، ص 61).

2-2 المدرسة آلية لتكريس الأيدولوجية أم فضاء لتربية على المواطنة:

"أضحى في حكم المؤكد اليوم، أن المدرسة تمثل الفضاء الأمثل لاكتساب التجارب الاجتماعية من حيث كونها تخضع لضوابط شكلية وقانونية" وتقوم بإرساء برامج ومناهج تعليمية لتربية المواطنة، بل تتعدى القسم الدراسي إلى فضاء محيط الأنشطة الرياضية والساحة، والمطعم، وقاعات الأنشطة الثقافية. وهي قادرة على إغناء البعد العلائقي للمتمدرسين لذلك فهي مدعوة إلى المساهمة في تكوين مواطن يعي دوره في الحياة العامة ولن يتأتى ذلك إلا بزرع القيم الديمقراطية في المتعلم، والكشف عن الوشائج القوية بين المواطنة المدرسية، وبعض الكفايات التعليمية المعرفية، والاجتماعية، والأخلاقية والسياسية داخل السياق المدرسي. وحتى تكون المواطنة مبنية على وعي، لا بد أن تتم بتربية مقصودة تُشرف عليها الدولة، يتم من خلالها تعريف الطالب المواطن بالعديد من مفاهيم المواطنة، وخصائصها مثل: مفهوم الوطن، والحكومة، والنظام السياسي، والمجتمع، والشورى، والمشاركة السياسية وأهميتها، والمسؤولية الاجتماعية وصورها، والقانون، والدستور، والحقوق والواجبات، وغيرها من مفاهيم المواطنة وأسسها".

ومسؤولية المدرسة كبيرة في تنمية المواطنة، وتشكيل شخصية المواطن والتزاماته. وفي تزويده بالمعرفة والمهارات اللازمة من أجل المواطنة الصالحة، وتنجز المدارس تلك المسؤولية من خلال المناهج الدراسية التي تبدأ في مراحل العمر الصغرى، وتستمر حتى بقية المراحل العمرية.

"المدرسة مؤسسة اجتماعية أنشأها المجتمع لتشارك الأسرة مسؤوليتها في التنشئة الاجتماعية تبعاً لفلسفته ونظمه، وأهدافه متأثرة بكل ما يجري في مجتمعيها، ومؤثرة فيه أيضاً. والمدرسة هي الأداة والوسيلة والمكان الذي بواسطته يتم نقل الفرد من التمرکز حول الذات إلى التمرکز حول الجماعة" (ناصر 2000، ط 1، ص 71) وتستطيع المدرسة تطوير الكفايات التواصلية والعلائقية، كالتأدب في الحوار وتديبر المشاعر لحظة الخصومات، وحسن التفاهة وحال وقوع الخلافات والنزاعات، وهذا الزهان الذي تهيئه المدرسة يستدعي "إقامة مشروع خاص بتربية المواطنة وذلك بإعداد أفراد يتشربون قيم المواطنة الديمقراطية، وأخلاق العقل المدنية، التي ترتكز على مبدأ التمرس بالمبادرة والمشاركة بالرأي، والفعل أثناء مواجهة الشؤون العامة والخاصة" (عبداللطيف 2012، ص 29)

والتربية على المواطنة لا تعتمد على طرق التلقين الكلاسيكية فإنه لا يمكن الرهان عليها في ترسيخ قيم المواطنة، وإنما يمكن الاعتماد على النظرية السوسيوبنائية، والتي يتضح أنها الأقرب في تحقيق أهداف التربية على القيم، "وتقوم على أبعاد متشابهة:

- 1- البُعد البنائي: يعود الى ذات المتعلم، والذي لم يعد مستقبلاً سلبياً للمعرفة وإنما يضطلع بدورٍ مَحَوَّرٍ في بنائها.
- 2- البُعد الاجتماعي: والذي يرتبط بمختلف الشركاء في العملية التربوية، حيث يبرئُ فضاء الحوار والتعاون والتفاعل، باعتباره وسيلةً أساسيةً في بناء المتعلم لمعارفه.
- 3- البُعد التفاعلي: ويتحدد من خلال التفاعلات مع الوسط وافتراسٍ وضعياتٍ إدماجيةٍ. وافتعالٍ مواقفٍ يُبحَثُ لها عن حلٍ تنتهي بتنظيم الآراء والمواقف المتعارضة."

تؤدي المدرسة دوراً حيوياً في تحقيق التجانس القومي، عن طريق التوحيد الثقافي والفكري بين مختلف الطبقات، وفي كل أنحاء الدولة مما يؤدي إلى التماسك القومي للمجتمع كما يقوم التعليم بدور بارزٍ في تدعيم الإحساس الوطني والهوية الوطنية والقومية، وتدعيم الولاء والانتماء في نفوس الطلاب، كما يُسهم بإيجابية في تشكيل أو إعادة بناء الشخصية الوطنية والقومية للأجيال الجديدة، وتوحيد التوجُّهات القومية؛ مما يُوجِد الهوية القومية" وقد بُدِئت جهودٌ كبيرة، فعُقِدَت العديد من المؤتمرات لتطوير التعليم، وأُضيفت موضوعات جديدة للمقررات الدراسية في المراحل المختلفة للتعليم بهدف الإسهام في تشكيل الهوية الثقافية في مقررات التاريخ، واللغة العربية وفروعها المختلفة."

فالمدرسة كواحدة من مؤسسات التنشئة الرسمية تعمل على تكريس المبادئ العامة لدين الدولة ودعم مذهبها، أو كما يعبر عنها - بورديو- بأنها "آلة لتكريس ايدولوجية السلطة القائمة" من خلال مناهجها وبرامجها، والحدود التي ترسمها لتلاميذها وفق نظامها الداخلي المعمول به.

كما أنّ البيئة السياسية تطبع الأفراد بطابعها، فسلوك من شبَّ على الديمقراطية واحترام الآخر، وحرية التعبير، والرأي والفكر والعدالة غير سلوك الذي يشبُّ على الدكتاتورية التي تقوم على باراديغم الطاعة والقهر " (الدين 2001، ص63) والسلطة كما هي عند - ميشال فوكو-. لا تنحصر في المجال السياسي فقط " ذلك أنها منتشرة وموجودة في كل المؤسسات والعلاقات الاجتماعية والمدرسة، والعائلة. والسلطة موجودة في ايدولوجية تبرر وجود تلك المؤسسات إذ هي ارتباطٌ بالمعرفة ويقول في هذا الصدد -ميشال فوكو: " نحن الآن على وشك التضحية بأنفسنا من أجل كذبتنا الكبرى، (الوهم) بأن المعرفة موجودة بمعزل عن السلطة.

2-3 الفضائيات الدينية - الميديولوجيا- وقضايا المواطنة:

" تعتبر وسائل الإعلام والاتصال مؤسسات اجتماعية تقدم برامج ثقافية محلية، أو وافدة فهي الناقل الذي سيساهم في تأقلم الفرد، وإحداث الألفة مع المحيط. إذ كلُّ نوع من محتويات وسائل الاتصال يُحدث تنشئةً معينةً فالأخبار السياسية تساهم في التنشئة السياسية والبرامج التعليمية تساهم في التنشئة التربوية والبرامج الدينية تساهم في التنشئة الدينية " (الرحمن 2003، ص3) كما تفتح نوافذها على الثقافات الأخرى. تختلف من حيث التأثير وقدرتها على الاتصال بالجماهير "ولكن الفضائيات أقوى تأثيراً في الناشئة وأوسعها اتصالاً بهم.

ومع الحداثة حدث تحولٌ في الفضاءات التي يشغلها الخطاب الديني من المؤسسات الكلاسيكية: المساجد والزوايا إلى الفضائيات الإعلامية، والانترنت فتحول بذلك نطاق الخطاب وشكله وهدفه. فهناك أكثر من عشرين قناة فضائية دينية تُقدِّم ما يُعرف إعلامياً بالبرامج الهادفة إلا أنّ هذه الأخيرة تُعمدُ إلى تقديم مادة متضادة من الفتاوى تشكِّل ضبابيةً وتشويشاً على المشاهد، والتي تعكس بدورها الخلفية الفكرية والمذهبية للقائمين على هذه القنوات، بما يخدم ايدولوجيا هذه الجماعات أكثر مما يخدم الدين ذاته. وفي هذا الصدد يتنبه مفكر من طراز الفرنسي - ريجيس دوبريه- إلى هذه المعضلة فيؤلف كتاباً بعنوان (الميديولوجيا) والتي يُقصد بها (العلم الذي يدرس الوسائط المادية التي يتجسد عبرها الكلام) ويُطلق على المجتمع البشري " دائرة التواصل الإعلامي " ويرى في طوفان الصور الذي يحاصر الفرد المعاصر مفارقة أنها بدلاً من أن تُشجِّد الرؤية فإنها تُسبب العشى.

2-4 مؤسسة المسجد وإشكالية الخطاب الديني حول قضايا المواطنة :

المسجد هو دار العبادة عند المسلمين، والمؤسسة الرئيسية في عملية التنشئة الدينية. والمنبر فيه هو المصدر الأساسي في الخطاب الديني الذي يعمل على توجيه الفكر والسلوك ولصوت المنبر هالة من القداسة في نفوس المسلمين. وتتخصَّص مهام المسجد في ترسيخ مبادئ العقيدة وتوضيح الأحكام الفقهية المتعلقة بالحلال والحرام.

وفيما يتعلّق بالمرأة فإن لها جناحا خاصا في المسجد تجلس فيه معزولة عن الرجال من وراء ستار تسمع ما يهّمها من أحكام وفتاوى ونصائح وإرشادات تعمل على توجيه سلوك الفتاة اجتماعيا، وهذه الفتاوى هي بدورها خاضعة لظروف المكان والزمان في بعض جوانبها تتغيّر بتغير الأحوال والظروف.

" إنَّ الخطابَ حول المرأة عموما وعملية سترها-حجابها خصوصا، من أهم انشغالات الخطاب الديني، وربما أهمها على الإطلاق، نظرا إلى أنَّ الأديانَ والمذاهبَ تُؤسِّسُ أحدَ أبعادِ هويّتها وخصوصياتها على المرأة وجسدها، فضْلا عن أنَّ ظاهرة التشويه الجنسي للإناث هي جزءٌ من التدين الشعبي وظواهره وطقوسه التي ارتبطت بشيوع مفاهيم مغلّوطة حول جسد الأنثى كمصدر للشروع والأثام والشهوات والرغبات العارمة التي تتطلب ضبطها والسيطرة الجسدية عليها عبر مجموعة من الميكانيزمات." ومفهوم الحجاب المتعلق بموضوع بحثنا مفهوم فضفاض يُمكن التحكم في بعض جوانبه تماشيا مع متطلبات الحداثة. فالفتاوى المعاصرة قائمةٌ على فقه المقاصد ورعاية مصالح الناس وفق مقتضيات الحداثة. فأمرُ الفتنة ومفهومُ السّتر يحكمه الواقع الاجتماعي الذي تفرضه التغيرات الحضارية والثقافية.

إلّا أنَّ المؤسّف على مستوى المؤسسة الدينية الحداثية أنَّ الإمامَ فيها يُمارس كلَّ الأدوار الاجتماعية فهو القاضي في أحكام الطلاق والزواج والموارث وهو الطبيب المعالج للأمراض عن طريق الرُّقية والعقد (العسل والحبة السوداء..)، وهو المصلح الاجتماعي والوسيط الذي يَفك النزاعات بين الأزواج والمتخاصمين، وهو العالم النفساني في حلِّ العُقد والأزمات النفسية... الخ، يمتلك قُداسة المنبر ويمارس من خلالها سُلطة فوق العادة تُخوّل له أن يفعل كلَّ هذا. يحدث هذا دون أيّة رؤية علمية متخصصة، في مجتمعات القرن الواحد والعشرين، الشعوذة والدجل هي الحُكْم في كل شؤون وقضايا الحياة.

أساليب التنشئة الدينية للفتاة

1-أسلوب التسلُّط:

لقد تطرق لهذا الأسلوب أحدُ المختصّين بالكلمات التالية: الأسلوب التربوي التسلطي هو دَفْعُ الطفل لمستويات أعلى من مستواه، وعدم ترك الحرية له في الحوار أو الاختيار أو حتى التعبير عن ذاته، أو التركيز على الجانب العقلي. من مؤشرات الأسلوب التسلطي هو "الشتيم والاستهزاء بشخصية الفرد ومقارنته مع الغير والإلحاح على فشله مما يقتل فيه الطاقات ويدفعه إلى السلبية ولسوء تقييم ذاته." (هشام 1992، ص 60) كما يَنبُت عن هذا الأسلوب شعور الفرد بالنقص وعدم الثقة بالنفس وكره السلطة الوالدية ويمتد ليشمل مُعارضة سلطة المجتمع ككلّ. إضافةً إلى هذه الميزات والآثار التي تتسم بها شخصية الفرد الذي يتعرض للقسوة والشدة في تنشئته، فإنَّ هناك آثاراً سلبيةً أخرى ذكرها ابن خلدون حين قال: " ومَنْ كان مَرْتَاباً بِالْعَسْفِ وَالْقَهْرِ سَطّاً بِهِ الْقَهْرُ، وَضَيَّقَ عَنِ النَّفْسِ فِي انْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَشَاطِهَا وَدَعَاها إِلَى الكَسَلِ وَحَمَلَهُ عَلَى الكَذِبِ وَالخُبْثِ وَهُوَ التَّنَظَّاهِرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفاً مِنْ انْبِسَاطِ الأيدي بالقهر عليه وتعلم المكرّ والخديعة وفسدت له معاني الإنسانية من حيث الاجتماع والتَمَرُّنُ وهي الحَمِيَّةُ والمُدَافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيبالا على غيره متواكلا وكَسَلَتْ نَفْسُهُ فارتكس وعاد في أسفل السافلين" (ا. الرحمن ص 540) وفيما يخص الفتاة فإنّه إذا لم تتحجب وفق ما تريده الأسرة فإنها ربما تُمنع من الخروج ومن الدراسة وقد يلجؤون معها إلى الضرب حتى ترضخ لمرادهم.

2 – أسلوب الحوار والإقناع:

هو الأسلوب الذي يعتمد على التفهّم و الحوار والمناقشة الديمقراطية بقبول بعض الانتقادات المقدّمة بشكلٍ موضوع، فالأب في هذه الحالة لا يعتمد على الإلزام والقهر، بل على المحاورّة والاستماع إلى آراء أفراد العائلة، قصْدَ الخروج بالرأي الصائب حول قضية ما، فهو بذلك يجعل أفراد أسرته من أبناءٍ وزوجيةً أصدقاءً له. وهذا الأسلوب هو أسلوبٌ مبنيٌّ على قاعدة الحوار والإقناع والمناقشة. أي على أساس ديموقراطي، ونعني بالديمقراطية هنا منْحُ مكانةٍ متساوية لجميع أفراد الأسرة من حيث الحرية والمساواة النسبية وحقّ إبداء الرأي والمناقشة الحرّة والمكانة المتساوية بين الأطفال دون تفرقة (سنا 1984 ص 249). كما أنَّ الأسلوبَ الحواريَّ تميّزُ به الأسرُ الحديثة نظرا لما أُتيح لها من إمكانيات لدى الأبوين المعاصرين للتثقيف وزيادة الوعي من خلال وسائل الإعلام وفتح مجالات التعليم ونشر بعض المؤلفات والمواضيع الخاصة بكيفية التعامل مع الأبناء ... إلخ

لهذا السبب فالأبوان المثقفان لهما فُرصٌ أكثر من سابقيهما فيما يخصُ كيفية التعامل مع الأبناء في كلِّ الأمور الأخرى المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية ولذلك يُدركون بأن الأسلوب الحواري هو الأنجع في تنشئة الأبناء. والأفراد الذين ينشؤون في جوٍّ كهذا هم أفرادٌ يتميزون بالتلقائية، نشطون غيرُ خوافين، فضوليون، قادرين على مواجهة الضغوط وتقبُّل المعايير الاجتماعية "إنَّ أسلوبَ الحوار التربوي يساهم في تكوين شخصيةٍ مستقلةٍ، ومُتَّزِنَةٍ انفعاليًّا، تُعي المسؤولة التي تُلقَى على عاتقها، وتتقبَّل نتائج العمل الإيجابية والسلبية. وعندما ينمو الفردُ أو الطفل بصفة عادية ومُتَّزِنَةٍ في جميع جوانبها، تَنفَجِرُ لديه القدرات الخاصة وتتطوَّر مواهبه. ويصير الفردُ فعالاً في المجتمع ومساهمًا في تغييره للإيجاب وذلك حسب الوظيفة والدور الذي يحتلُّه" (ع. الرحمن 1994 ، ص. 40) ونستنتج ممَّا سبق أنَّ الأسلوب التربوي الديمقراطي هو محورُ الدراسات العلمية الحديثة، والتي تنادي به في كل أرجاء العالم لينتهجه الآباء، حيث يتمُّ تربية أبناء متوافقين نفسيًا واجتماعيًا. إلا أنَّ تجسيده في الواقع يتطلب نوعًا من الفن والمهارة والصبر. واستعمال مثل هذا الأسلوب ما هو إلا دليل على الوعي والتحصُّر، وهامش الحرية هنا هو الذي يجعل الفتاة ترتدي الحجاب عن قناعةٍ كاملة ورضًا أو ترفضه وتلبس ما شاءت من أنواع الثياب الأخرى.

3- أسلوب الإهمال واللامبالاة:

هو الأسلوب الذي تُمنح فيه الحرية المطلقة للفتاة من طرف الأسرة في ظلِّ غياب الضبط الأسري: من حيث التهاون والتراخي في معاملة الطفل. ومن أهم النتائج التي تترتب عنه تكوين شخصية اتكالية لا تتحمل المسؤولية، ويصير فيها الطفل غير قادرٍ على تحمُّل مواقف الفشل والإحباط، وتنمو لديه نزعَات وملاحمُ الأنانية، وحُبُّ التملك بشدة. (عباس 1998 ، ص 23) ويُعدُّ إهمالُ الفتاة من قبل والديها والامبالاة بهم سببا في فقدانها الإحساس بالأمن سواء المادي أو النفسي. وقد تتمرد الطفلة أو تنحرف نتيجة هذا الأسلوب، وبالتالي تكون عُرضة للانحرافات ومنها مصادقة من هب ودب، ولبس ما شاءت من الثياب والخروج في أي وقت تحب دون قيد أو شرط. كما أنها تكون غير مُحصَّنة بتوجيه الوالدين وقد صدَّق مَنْ وَصَف هذا الأسلوب حين قال: "إنَّ تنشئة الأبناء يجب أن تكون مصبوغةً بصرامة معتدلة في غير عُنف، وليونة مُعقلنة يُعَلِّفها الرِّفقُ في غير ضعف. (العربي، 1986 ، ص 71)

4. الأسلوب التربوي النموذجي:

يظهر التذبذب بين مختلف الأساليب التربوية نتيجة عدم التفاهم بين الأب والأم في اتباع طريقةٍ محددة في التربية. أو عدم حسَم المواقف بحكمة، فتارة يُعاقب الطفل وتارة أخرى يُثاب على نفس السلوك. أو أنَّ تكون الأم متسامحةً كثيرا على أخطاء الطفل والأب صارم وشديد، يعاقب على أتفه الأسباب. وينجم عن هذا الأسلوب التربوي عدة أعراض مثل عدم قدرة الطفل على التمييز بين الخطأ والصواب، وينشأ عنه الخوف والتردد، فلا يستطيع الحسَم في الأمور التي تواجهه، ولا يمكنه التعبير عن آرائه ومشاعره لتناقضها وعدم ثباتها والأسلوب الأمثل يكمن في التوسط بين الشدة واللين، وبين التدليل والقسوة. أي التزام الوسط فلا إفراط حتى يكون تدليلا ولا تفريط حتى تكون لامبالاة.

فبالأسلوب المثالي للتنشئة الاجتماعية هو الاعتدال في معاملة الطفل أي تفادي القسوة الزائدة التي تؤدي بالأبناء إلى الانغلاق على الذات وتفادي التدليل الزائد الذي يُضعف شخصيتهم، ويجعلهم غير قادرين على مواجهة الواقع بمفردهم. كما يؤدي التدليل الزائد إلى إصرار الطفل على تلبية مطالبه أينما وجد. وكيف ما شاء ومتى يشاء دون مراعاة الظروف الاجتماعية والاقتصادية المحيطة بالعائلة. كما يتمثل هذا الأسلوب في التوسُّط في إشباع حاجات الطفل الحسية والمعنوية بحيث لا يعاني من الحرمان.

خصائص التنشئة الاجتماعية

تحمل التنشئة الاجتماعية جملةً من الخصائص يُمكن تليخيصها فيما يلي:

1- التنشئة عمليةٌ تكيفٌ واندماج اجتماعي:

تتولى عملية التنشئة الاجتماعية مهمة تشكيل الفرد منذ ولادته، إذ إنَّ الإنسانَ يولد ك مخلوق يعتمد على غيره، غير مالك للقدرات التي تؤهله للتعامل مع غيره من بني جنسه. فعملية التنشئة تعمل على تحويل الإنسان من كائن بيولوجي حيواني إلى كائن

إنساني يكتسب من خلالها" العادات والأفكار والاتجاهات المتَّفَق عليها ثقافيا وهو يندمج في مجموعته الاجتماعية عندما يتعلم حقوق وواجبات مركزه" (1983، ص 225) ممّا يجعله كائنا ناضجا اجتماعيا.

مع حجاب الموضة تحاول الفتاة أن تتموضع في منطقة وسطى بين المحلي والعولمي وكأنما تريد بذلك أن تجد لنفسها مكاناً في السّياق العولمي الحدائ. لأن الحجاب التقليدي أو الجلباب " يحتل جزء كبيراً من الإطار الذي يُولدُ كافة المعاني السلبية: القمع الذكوري الكبت، العزلة، غياب الإرادة، التَّشْيُؤُ... " من تلك الدلالات التي أصبحت مُرادفةً للبهمنة الذكورية إن صحَّ التعبير. وتكثُفُ الفتاة اجتماعياً يعني فيما يعنيه مُواكبةً مثيلاتها في أصناف الملابس وأدوات الزينة المختلفة وإلا فإنها تهم بالتخلف والرجعية.

2-التنشئة عملية ديناميكية مستمرة:

التنشئة الاجتماعية تُحدُث في وسَط اجتماعي ديناميكي، والتغير كما قيل هو الشيء الثابت في كلِّ ثابت. وبفعل الاحتكاك الثقافي بين الشعوب تؤدي هذه العملية إلى تبادل النماذج السلوكية بين الأفراد وتعديلها وإثرائها وفقاً لما تدعو إليه حاجة المجتمع. كذلك تتغير أنماط التنشئة الاجتماعية بالتغيرات التي تَمَس مختلف مؤسسات المجتمع، حتى الدينية منها، ويقع هذا بفعل المستجدات التي تطرأ على الواقع الاجتماعي والتي بدورها تفرض فتاوى فقهية تتماشى مع متطلبات الحدائ. فالفتاوى تعمل على توجيه السلوك وفقاً لما تُمليه حاجات الحياة المعاصرة. ومع كلِّ هذه التحولات والتغيرات الاجتماعية يبقى وضع الخمار على رأس الفتاة حافظاً للهوية الاجتماعية. والحرية في باقي لباس الجسد حاملةً للهوية الفردية.

3-التنشئة عملية تعليم وتعلم:

يَعتبر بعضُ الباحثين أنَّ التنشئة "عمليةٌ تعلم للأدوار و المهارات الاجتماعية التي تساعد الفردَ على التأقلم مع المحيط الاجتماعي وإشباع حاجاته الاجتماع. ومن أجل تحقيق هذه الغاية تستعمل أساليب الثواب والعقاب إذ كما يتعلم الفردُ الأشياء الحسنة فإنه يكتسب أيضاً سلوكيات سيئة من تواجهه بالمجتمع الخارجي.

فالحجاب هو مجموعة الدلالات حول حجب المرأة عن الأنظار، مشكلاً بشكل من مجموع تدايير الهندسة الجنسية المُحصَّنة بمنظومة أخلاقية اجتماعية، تجعل المرأة تُولد أتمةً وعليها أن تثبتَ يومياً براءتها والخمار هو علامة الإثم ودليل براءتها، لأنَّ الخمار يجب أن يجزَّ وراءه كوكبة لا تنتهي من الأفعال والسلوكيات المتناقضة أحياناً مع الفعل والمشاركة: رفض الاختلاط، ورفض الخلوة ورفض المصافحة واعتبار المرأة مواطنةً من نوع خاص. " (سلامة 2004، ص 114). ومع ذلك فإنَّ ما تقدمه وسائل الإعلام هو نفسه منتوج اجتماعي، ويبقى الجسدُ على حدِّ تعبير - ماري دوقلاس - تحت قبضة وإرادة المجتمع مهما حاول التنصُّل منه.

4-التنشئة عملية توريث للقيم الثقافية:

هذه الخاصية تُركز على مضمون التنشئة الاجتماعية فهي في عمقها الاجتماعي نُقلٌ للقيم الحضارية-لمجتمع ما-للمحافظة عليها من الاندثار، أو للتغلب على قيم حضارية أخرى، وغزوها يظهر هذا المفهوم بشكل واضح فيما يُعرضُ في وسائل الإعلام، فوسائل الإعلام في عصرنا أصبحت وسيلةً فعالةً في التنشئة الاجتماعية. إذ يستطيع الفردُ أن يتعلم الكثير من المفاهيم والأفكار بشكل سريع وفعالٍ أكثر في المراهقين خاصة.

فاليوم لم تُصَبِّح الأسرة، ولا المدرسة فعالةً في شرح وتفسير القيم الحضارية للأجيال بقدر ما تفعل وسائل الإعلام، ولذا نرى هذا التأثير الذي عليه الشعوب العربية والإسلامية بالحضارة الغربية، "وجسدُ المرأة يخضع لسلطة مزدوجة فهو واقعٌ تحت سلطة العام المجسد بالنظام السياسي والأيدولوجي من جهة، وسلطة الخاص من جهة أخرى المتمثلة في تملك الرجل زوجاً كان، أو أباً، أو أماً كتجسد لقيم الذكورة... كما يجب أن نلاحظ أنَّ كلَّ شيءٍ ينطلق من أرضية أخلاقية، والجسد الأنثوي يُخفي الفتنة والفضيحة العار والذنب." (الرايس 1995، ص 31) وفي النهاية فإنَّ الجسد لا يوجد إلا وهو مبنيٌّ ومهندس ثقافياً من قبل المجتمع.

خلاصة

إن الحديث عن إشكالية الحجاب يحتل أهمية كبيرة عند الداعين له، كما عند المتحفظين عليه، ووصفه بالإشكالية لا يقتصر فقط إلى ما يعكسه من صراع ايديولوجي بين كلا الاتجاهين المناصر والمناوئ، بل إن الحجاب أكبر من كونه مجرد إجراء ديني وقائي وأخلاقي، وارتباطه بخيار المرأة وقرارها الشخصي. ومع ذلك يبقى الحجاب رمزاً دينياً دالاً على الهوية والانتماء إلى الأمة والجماعة.

ونحسب بذلك أنّ قضية الحجاب خرجت عن طرحها القديم من زاوية (فريضة أم لا؟) وتجاوزت ارتباطها بالتخلّف والتأخر واتخذت معركة الحجاب أشكالاً أخرى... فلا تلبث إحدى معارك الحجاب أن تتواري، حتى تبرز أخرى لتشغل حيزاً كبيراً من الجدل الثقافي والسياسي. تبدأ هذه الجدالات من جسد المرأة ووضعها الاجتماعي لتمر بقضايا المجتمع كله.. الديمقراطية والحريات والمواطنة والهوية والخصوصية الثقافية. هذه المرة من فرنسا ومع تزايد أعداد المهاجرين المسلمين إلى المجتمعات الغربية في الثلاثين سنة الأخيرة، وبداية ظهور مشاكل الاندماج والتأقلم الثقافي والتمهيش والبطالة والعنصرية والإسلاموفوبيا في صميم بني هذه المجتمعات، فإن الحجاب أصبح رمزاً محورياً لمشاكل الهوية والخصوصية الثقافية وحقوق الأقليات. وزعزت مواطنة المتحجبات وعامل مغذي لكل النزعات العنصرية المعادية للأجانب والمحابية لليمين المتطرف من جهة أخرى.

ما يشد اهتمامنا في هذه الدراسة ليس الحجاب بمفهومه العام الذي يعني الستر لأنه لا يشكل ظاهرة اجتماعية كونه ثقافة تملئها الأديان السماوية على مر التاريخ وفي مختلف الحضارات. وإنما تحول الحجاب إلى قضية ترتبط بقيم المواطنة والحريات الشخصية في بلدان الديمقراطية وحقوق الإنسان، تجعل منه في رأينا ظاهرة تستحق البحث والوقوف عندها، بالفحص لفهم دلالتها السوسيوثقافية.

قائمة المراجع:

1. ابراهيم ناصر ، علم الاجتماع التربوي ، دار الجيل ، بيروت ، 2000 ، ط1، ص 71.
2. ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة، ط5، دار القلم ، بيروت ، ص 540
3. بخي العربي ، التربية العائلية في الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 ، ص 71.
4. حسين تكريتي . دور التخطيط التربوي في تغير القيم الاجتماعية ، مؤتمر القيم والتربية في عالم متغير عمان : جامعة اليرموك ، 1999
5. حياة الرايس ، جسد المرأة من سلطة الإنس الى سلطة الجن ، سينا للنشر ، تونس ، 1995 ، ص31
6. خولي سناء ، الأسرة والحياة العائلية، ط1، دار النهضة العربية ، بيروت، 1984 ص 249
7. دافيد لوبروتون ، في أصول تصور حديث للجسد ، تر : هشام الحاجي ، تونس ، دون سنة ، ص 183
8. رجاء بن سلامة ، النساء في الخطاب العربي المعاصرة ، تجمع الباحثات اللبنانيات ، بيروت ، 2004 ، ص 114
9. سامية جابر محمد ، الثقافة والشخصية ، دار النهضة ، بيروت ، 1983 ، ص 225
10. سرحان منير ، في اجتماعات التربية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 111.
11. سيد أحمد عثمان ، علم النفس الاجتماعي التربوي . ج 1، التطبيع الاجتماعي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، 1975
12. شرابي هشام ، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1992 ، ص 60
13. شروخ صلاح الدين ، علم الاجتماع التربوي ، ط1 ، دار العلوم للنشر والتوزيع ، عنابة ، 2001 ، ص 63.
14. شيرين أبو النجا ، الحجاب بين المحلي والعملي ، مرجع سابق ، ص 90
15. عيسوي عبد الرحمن ، مشكلات الطفولة والمراهقة ، دار العلوم العربية ، مصر ، 1994 ، ص 40.
16. كمل عبد اللطيف ، المواطنة والتربية على قيمها، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012، ص 29.
17. محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثية والبيئة، ط2، دار التربية، بغداد-1969، ج 1، ص 8.
18. محمد عباس ابراهيم، الثقافة والشخصية، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، 2013، ص 61. بتصرف
19. محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، 1969، ج 1، ص 463.
20. محي الدين مختار، التنشئة الاجتماعية (المفهوم والأهداف): مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية، ع9، 1999، ص 28.

21. المهدي عباس ، الذات والتفوق ، دار المناهل، بيروت ، 1998 ، ص23
22. موفق الحمداني: الطفولة، بيت الحكمة، بغداد-1989، ص194.
23. يعقوب يوسف الكندري ، الثقافة والصحة والمرض. مجلس النشر العلمي- جامعة الكويت ، 2003، ص.30

مجلة حقائق